

الحجاج في الدراسات الغربية والعربية

بحث في المصطلح

أ. عبد العزيز مصباحي

ب. جامعة الشهيد حمه لخضر - الوادي

والحجاج مفهوم متشعب ومتلبس على الدارسين لتشعب مجالاته وتعدد استعمالاته وتباين مرجعياته: الخطابة، الخطاب، القضاء، الفلسفة، [...]، ويستمد معناها وحدوده ووظائفه من مرجعية خطابية محددة، ومن خصوصية الحقل التواصلية الذي يندمج في استراتيجياته [...]. ولا غرابة والحالة هذه ن هناك حجاجَ خطابياً (لسانياً) وخطابياً (بلاغياً)، وآخر قضائياً أو سياسياً أو فلسفياً... إلخ²¹.

ولذلك فقد

1. مفهوم الحجاج.

أ. لغة: تدور معاني الحجاج في اللغة حول مادة (ح، ج، ج)، والحجاج في اللغة من (حاج يحاجج حجاجاً)، وقد قال الأزهري: الحجة الوجه الذي يكون الظفر عند الخصومة، وجمع الحجة حُجَجٍ وحجاج وحاجَّةٌ ومحاجَّةٌ وحجَّاجاً نازعه الحجة، وحجَّةٌ يُحجُّه حجا غلبه على حجته، وفي الحديث: "فحجَّ آدم موسى"؛ أي غلبه بالحجة، واحتج بالشيء اتخذه حجة، قال الأزهري: "إنما سميت حجة لأنها تحج، أي تقصد؛ لأن القصد لها وإليها"³. وما يفهم من تعريف ابن سيد للحجاج أنه مجموعة الحجج التي يقوم المتكلم بتقديمها لإقناع المتلقي لخطابه ولرسالته المراد إبلاغها، ويرى الجرجاني بأن: "الحجة هي ما دل على صحة الدعوى، وقيل الحجة والدليل واحد"⁴، ويرى ابن منظور في معجمه بأن الحجاج من: "حاججته أحاجه حجاجاً ومحاجة حتى حججته، أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، ويقال حاجه

محاجة حتى حججته، أي غلبته بالحجج التي أدلت بها.. ويقال حاجه محاجة وحجاجا نازعه المحجة... ويقال أنا حاججته فأنا محاجه وحجيجه أي مغالبه بإظهار المحجة التي تعني الدليل والبرهان"⁵.

حيث يرى ابن منظور أن المحجة تتمثل في الدليل والبرهان الذي يسعى المتكلم لتقديمه للطرف الآخر محاجة له به.

وجاء في المعجم الوسيط: "حج بنو فلان فلاناً: أكثروا التردد عليه والحج سره ليعرف غوره ويعالجه، وفلان أصاب محاج عينه، وغلبه بالمحجة: يقال حاجه فحجه (أحج) فلاناً: بعثه ليحج البيت الحرام.

(حاجه) محاجة وحجاجاً: جاء في التنزيل العزيز: "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه".

احتج عليه: أقام المحجة وعارضه مستنكراً فعله (تجاجوتجادلو) الحجاج في كل شيء حرفه وناحيته وعظم الحاجب: حجه وحجاجاً الشيء جانباه والمحجة: الدليل والبرهان، وجمعها حجج وحجاج والحاج الذي يكثر الجدل⁶.

وهناك من يرى بأن الحجاج جدلي في حد ذاته حيث يقول طه عبد الرحمن: "وحد الحجاج أنه فعالية تداولية جدلية... وهو أيضاً جدلي لأن هدفه إقناعي قائم بلوغه على التزام صور استدلالية

أوسع وأغنى من البنيات البرهانية الضيقة"⁷.

كما يرى ابن وهب في تصوره للجدل أنه يقع في العلة، وهو برأيه هذا يتقاطع مع النظرية الحجاجية المعاصرة، وكلاهما يستمد آرائه من المفاهيم الأرسطية، والجدل هو خطاب تعليمي إضافي⁸.

ويرى الطاهر ابن عاشور في كتابه (التحرير والتنوير) بخصوص معنى حاجّ وجادل، في قوله تعالى: (ألم تر الذي حاج إبراهيم في ربه)⁹. حيث قال: "معنى حاجّ خصم وهو فعل جاء على زنة المفاعلة التي اشتق منها، ومن العجيب أن الحجة في كلام العرب البرهان المصدق الدعوى مع أن حاج لا تستعمل غالباً إلا في معنى المخاصمة، وفي الأغلب أنه يفيد الخصام بباطل."¹⁰

وقد أشار إلى أن حاجّ: خصم، ومعنى المجادلة: القدرة على الخصام، والتي قد تكون في الخير والشر، فالجامع بين معنى اللفظين هو التخاصم والتنازع، وهذا قريب من قول ابن منظور (التحاجج: التخاصم)، لأن (حاجّ والتحاجّ) من نفس الأصل، وكذلك (محاجج: جدل) إلا أن المحجاج لا يشترك معها في الأصل، فهو جمع الحجة لقول ابن منظور: (وجمع حجّه، حجج وحجاج"¹¹، أي أنه يعني المخاصمة والمقارعة.

من خلال ما سبق ذكره بخصوص المحجاج ومعناه اللغوي يبدو أن ميدان المحجاج "قد يكون المنطق اللاصوري أحياناً؛ لأنه كثير من الأحيان وكثير من المواقف يتخلى عن الدقة والمصدقية ويلجأ إلى الإقناع بعيداً عن الموضوعية، فالمتكلم وهو يبني بالحجاج عالماً خاصاً قد يخالف على نحو جلي طوائف الاستدلال المنطقي، إذ يمنح متلقيه من خلال طريقة تحاوريته معلومات عن العالم المتحدث عنه، ولكن هذا التحاور فيما بين المتكلم والمتلقين، يكون عن طريقتهم الخاصة وحسب قناعاتهم الشخصية؛ أي بعيداً عن التأثير القائم على الأسس العقلية والحقائق العلمية وحتى الأعراف الاجتماعية"¹². وعليه فإنه وإن اعتبر البعض المحجاج مرادفاً للتحاجج والجدل فإننا نرى بأن التحاجّ إنما يقصد به التخاصم بالباطل، أما الجدل فهو خلط يرتجى منه نفع، كالجدال في الحج الذي نهي عنه ديننا الحنيف في القرآن الكريم، فهو خلط ولبس هناك أفضل من السكوت عليه، أما

وفي اللغة الفرنسية نجد لفظة (argument) تشير إلى عدة معانٍ متقاربة لعل من أبرزها على الخصوص بحسب قاموس (le robert) ما يلي:

- هو القيام باستعمال الحجج،
- هو مجموعة من الحجج التي تستهدف تحقيق نتيجة واحدة،
- هو فن استعمال الحجج و الاعتراض بها في مناقشة معينة،
- هو الدفاع عن اعتراض أو أطروحة بواسطة حجج أو عرض وجهة نظر معارضة مصحوبة بحجج.¹³

أما في اللغة الإنجليزية الحديثة فإن لفظة الحجاج يشير استخدامها إلى وجود اختلاف بين طرفين ومحاولة كل منهما إقناع الآخر بوجهة نظره، وذلك بتقديم الأسباب أو العلل التي تكون حجة مدعمة أو داحضة لفكرة أو رأي أو سلوك ما وقد جاء في قاموس Cambridge أن "الحجاج هو الحجة التي تعلل أو تبرر مساندتك أو معارضتك لفكرة ما"¹⁴، ويفهم من هذا أن الحجاج هو ما يؤيد به فكرتك أو موقفك إزاء موضوع معين ويكون ذلك في كل الحالات إما سلباً أو إيجاباً.

وإذا حاولنا أن نقارب بين المعنيين للحجاج في كل من اللغة الفرنسية والإنجليزية وبين معناه في اللغة العربية، لوجدنا أن هناك تقارباً وتوافقاً بين المعنيين، والذي يذهب إلى أن الحجاج يتم بين طرفين متخاصمين أو متنازعين وبالحجة يغلب أحدهما الآخر مدافعاً عن رأيه أو معترضاً على المثال لأمر ما والتسليم به، والحجاج هنا يؤسس للدفاع عن الأفكار المعروضة من طرف المتكلم وهو يتجسد في مجال النسبية لا مجال الأحكام المطلقة والمنطقية، وهو ما كان محور الدراسات اللسانية التداولية في تناولها لمفهوم الحجاج من الناحية اللغوية.

ب. اصطلاحاً: اختلفت تعريفات الحجاج، فمنها ما نجدها تدنو كثيراً من جوهر الحجاج، في حين تنأى عنه الكثير من التعريفات الأخرى، وذلك ما يحدث تبايناً واضحاً في تعريفاته

المختلفة بين العلماء والباحثين، ويعود ذلك إلى المرجعية الفكرية ونوعية الخطاب، فهناك من عرفه من منظور بلاغي وآخر من منظور فلسفي ومنطقي وتداولي، بل حتى وقانوني ونفساني، ومن أهم هذه التعريفات التي نراها أدنى من غيرها إلى جوهر الحجاج نجد ما يلي:

— عند (برلمان وتيتيكا): والحجاج في نظرها يتجاوز النظر فيما هو حقيقي مثبت محدد، إلى تناول حقائق متعددة ومتدرجة، فمبعثه —إذا— هو الاختلاف، وشرطه أن يقوم على موضوعية الحوار، حيث يقف فيه الآخر المحاجج موقف الشريك المتعاون، لا موقف الخصم العنيد، من أجل تخفيف غاية، وهي: استمالة المتلقي لما يعرض عليه، وأن يجعل العقول تدعن لما يطرح عليها، وأن يزيد في درجة إذعانها باعتماد وسائل التأثير في عواطفه وخيالاته وإقناعه.¹⁵

— الحجاج عند (ماير) : "هو دراسة العلاقات القائمة بين ظاهر الكلام وضمينته"¹⁶. ونضيف في ضوء نظرية المسألة التي صاغها فنقول: "إن ظاهر الكلام هو الجواب وضمينته هو السؤال في صميم الجواب، ويقع عليه المتلقي لمساعدة ذلك المقام، وفي كلمة واحدة نقول أن الحجاج عند ماير هو: "إشارة الأسئلة وإثارة الأسئلة هي عنده اتصالية أو جنسا من الخطاب التفاعلي مع إبراز أهم مكوناته"¹⁷. أو هو باعتباره فن الإقناع أو بكلمة أخرى هو جملة من الشروط والقاعد منها ما يتعلق ببيئة الخطاب ومنها ما يعود إلى العلاقات بين أقسامه ومفاصله الكبرى، ومنا ما يتعلق بضروب الحجج والأدلة والبراهين"¹⁸.

— الحجاج عند أندرسون ودوفر: حيث أن مفهوم الحجاج هنا هو: "طريقة استخدام التحليل العقلي والدعاوى المنطقية، وغرضها حل المنازعات والصراعات واتخاذ قرارات محكمة، والتأثير من جهات النظر والسلوك"¹⁹. بحسب هذا التعريف أن الحجاج إنما يستخدم فيه المنطق، وذلك قصد استمالة الآخرين والتأثير فيهم.

— الحجاج عند بشغرين : وبحسبه فإن الحجاج هو: "جنس من الخطاب، تبقى فيه جهود الأفراد دعامة مواقفهم الخاصة، في الوقت نفسه، الذي ينقضون فيه دعامة موقف

خصوصهم²⁰، والحجاج هنا هو الدفاع عن الموقف الشخصي من خلال ما يوفره المحاجج من أدلة وبراهين تسند رأيه وتنفذ رأيه غيره.

– الحجاج عند ماس: يعرفه بأنه: "هو سياق من الفعل اللغوي تعرض فيه الفرضيات أو المقدمات وادعاءات مختلفة في شأنها، هذه الفرضيات المقدمة في ذلك الموقف الحجاجي هي مشكلة الفعل اللغوي²¹."

– الحجاج عند هايمانوفيغير: هو عملية اتصالية، وهي كل ضرب من ضروب عرض البرهان الذي يعلل الفرضيات والدوافع والاهتمامات.²²

ومن خلال هذه التعريفات التي ذكرناها، لا سيما التي تناولت مفهوم الحجاج عند العرب والغرب يمكننا أن نستنتج أن مصطلحي

2. الحجاج عند الغرب وعند العرب:

أ- الحجاج عند الغرب:

أ-1- قديماً: كان اهتمام اليونانيين القدامى منصباً على فنون الكلام، ولا سيما الخطاب والشعر منها، ولذلك نجد منهم من نظر لها، وأرسى قواعدهما الفنية والعقلية التي صارت فيما بعد منهجاً اتبعه من جاء بعدهم من العلماء يوناناً كانوا أو عرباً²³، ومن هؤلاء نجد:

– الحجاج عند أرسطو:

أسس أرسطو دراسته للحجاج على دعامين كبيرتين: الأولى يختزلها مفهوم الاستدلال (Raisonnement)، والثانية تقوم على البحث اللغوي الوجودي، ففيما يتعلق بمفهوم الاستدلال نلاحظ أنه يحمل شحنة منطقية صورية، فهو عند أرسطو: "تفكير عقلي بواسطته يتم إنتاج العلم"، لكن هذا الاستدلال لا ينطلق من الفراغ، بل من معارف سابقة أهمها المبادئ والتعريفات، أو حتى مسلمات شائعة، من هنا كان تركيز أرسطو على أكثر صور

الاستدلال أهمية والمتمثلة في الصور القياسية... فهو يعرفه بأنه: "قول مؤلف من أقوال إذا سلم بها لزم عنها بالضرورة قول آخر"²⁴.

أما الدعامة الثانية من دعائم الحجاج الأرسطي فتتمثل في البحث اللغوي في علاقته بالإنسان والوجود، فقد أكد أرسطو أن الإنسان لا يحيا إلا باللغة وأن إدراكه لذاته ولوسطه رهن بمدى وعيه للغة، ويلخص Aupenque (أوبانك) تصور أرسطو في قوله: "إن اللغة ليست ضرورية للتعبير عن الشيء فحسب، بل هي ضرورية أيضاً في بنائه"²⁵.

والمتتبع للمفاهيم الأرسطية يلاحظ أن المفاهيم التي يستعملها ذات دلالات وجودية عميقة، فضلاً عن الطابع الرمزي الذي يضيفه هو عليها²⁶، ومن خلال هذا الكلام نلاحظ أن أرسطو تناول الحجاج من زاويتين متقابلتين، من زاوية بلاغية ومن زاوية جدلية، فمن الزاوية البلاغية يربط الحجاج بالجوانب المتعلقة بالإقناع، ومن الزاوية الجدلية يعتبر الحجاج عملية تفكير تتم في بنية حوارية وتنطلق من مقدمات لتصل إلى نتائج ترتبط بالضرورة، فهاتان النظرتان المتقابلتان تتكاملان في التحديد الذي يقدمه (أرسطو) لمفهوم الخطاب، إذ يبينه انطلاقاً من أنواع الحضور ومن الرغبة في الإقناع ويحدده في ثلاث أنواع: النوع الإرشادي، النوع القضائي والنوع القيمي²⁷.

وقد أعطى أرسطو في دراسته اهتماماً كبيراً للخطاب والتعبير عند الإنسان، حيث ربط (أرسطو) بين خاصية الكلام والتعبير عن الإنسان وبين الإقناع: "فالإنسان لأنه متكلم معبر يبحث بطبعه عن الإقناع ويحاوله ويحاول أن يضل بكلامه إلى إقناع أكبر عدد من الناس بوسائل مستمدة من التفكير الذي حوي به في الطبيعة"²⁸، وقد أولى (أرسطو) في درسه للخطابة اهتماماً كبيراً لجانبها العقلي والنفسي محاولاً الموازنة بين وسائل الإقناع ووسائل التأثير، يجعل الأولى معينة للثانية، فماير أول الأمر بين نوعين من الحجاج (الأدلة) الأدلة المصنوعة "التي لا دخل لنا فيها لأنها سابقة على تصرفاتنا: مثل الشهود في القضية والتعذيب

والاتفاقات المكتوبة وغير ذلك، والأدلة المصنوعة التي يسميها (التصديقات) هي جوهر الخطابة لديه، وتقوم على ثلاثة أنواع: " ... ما يتصل بالخطيب نفسه، وما يتصل باستعداد السامعين وما يتصل بالخطبة نفسها، إذا كانت استدلالية في حقيقتها أو في ظاهرها"، فكان النوع الثالث ما يسمى بالاستدلال المنطقي، وهو وثيقة الصلة بالحجاج الآن كونه خاصاً بالحجة نفسها، وبتحقيق الاستمالة والتأثير بالقول²⁹.

وقد ميز أرسطو بين ثلاث مستويات من الحجج: (الإيتوس، الباتوس، اللوغوس) في علاقتها بالأفعال الثلاث للفصل الخطابي: الخطيب، المستمع، الخطاب.

- الإيتوس: يصف الخصائص المتعلقة بشخصية الخطيب والصورة التي يقدمها عن نفسه.
- الباتوس: ويشكل مجموعة من الانفعالات يرغب الخطيب في إثارتها لدى المستمعين.

اللوغوس: ويمثل الحجاج المنطقي الذي يمثل الجانب العقلائي في السلوك الخطابي، فيرتبط بالقدرة الخطابية على الاستدلال والبناء الحجاجي³⁰، وقد فرق (أرسطو) بين المناقشة الجدلية والخطبة نتيجة الاختلاف الذي وجده بينهما بخصوص مساهمة المقول إليه في فعل بناء القول الحجاجي، فالمناقشة الجدلية عنده هي "جنس ينشئه طرفان اثنان، فهذا هو الشرط الأساسي لتقديم مناقشة جديدة حسب أرسطو، فهذان الطرفان يتقاسمان في بناء المناقشة فعلياً أساسيين، وهما ال سؤال والجواب، ويسمي أرسطو أحد الطرفين السائل والطرف الآخر المحيب، فهما يكونان متلازمين في فعلي السؤال والجواب على أن السائل هو الطرف المهم في الجدل حسب أرسطو³¹. أما الخطبة فلا تقوم على السؤال والجواب في رأيه، فهي: "قول ينشئه الخطيب وحده والغرض المقصود منه في كل الحالات هو إقناع بالحكم وإلى الحكم يستند الفعل والحكم يمثل جواباً عن سؤال يكون استشارة الوضع الخلافي المنشئ للحجاج عموماً³².

وبهذا التوجيه يكون أرسطو قد حول مسار الخطابة والحجاج عامة من كونهما قائمتين على التأثير (Séduction) والتحريض (Manupilation) والتملق (Flatterie) إلى كونهما عمليتين برهانتين عقليتين من جهة، وداخليتين في مجال الاجتماع الإنساني من جهة ثانية، ثم إن السمة الفعلية من جهة ثالثة تجعل الحجاج مؤسساً على خطة معينة يمكن للمتلقين من ذوي الأسانيد المعرفية الفنية الدخول إلى نسقها الأسلوبي والصوري، إذ بذلك تحصل لهم لذة الاكتشاف والإحساس بقيمة المشاركة في الوعي بالبنى الحجاجية البلاغية الخطابية بصفة عامة³³، وكل ما أراده (أرسطو) من هذا التغيير "هو تخلص الخطاب مما قد يعتريه من تزييف وتملق وركاكة، فللقول عنده مكانة كبيرة، إذ أن (اللغة) هي التي تلعب أعظم الأدوار في بناء الإنسان والمدنية والمجتمع"³⁴.

وبكل هذه الجهود التي بذلها أرسطو فقد "كان بهذا النموذج المثل الذي انبنت عليه فيما بعد أهم نتاجات العرب البلاغية والفلسفية التي نظرت للخطابة خاصة كميدان أمثل لتوافر عناصر الحجاج ومكونات الخطاب الإقناعي عموماً"³⁵.

- الحجاج عند أفلاطون: لقد كان فكر أفلاطون في العملية الحجاجية نتيجة تلك المحاورات التي جرت بينه وبين السفسطائيين الذين كان في صراع معهم، حيث "يتركز نقد أفلاطون للسفسطائيين في اعتباره وإياهم أدعياء على العلم والمعرفة، وأن ما يقدمونه لا يعد وكونه نتائج ظنية مبعثها الهوى واللذة، وهي أمور ومفاهيم ضارة بالقيم والأخلاق واليقين والإيمان"³⁶.

إذ نجده يصرح في محاورته المعروفة بـ (قوجياس) أن: "... القول الخطبي (السفسطائي) لا ينحصر في جنس الخطابة، وإنما هو قول زئبقي يمكن أن يتسلسل ليحرر الخطابة من شرط تحديد الموضوع إلى فضاءات أجناس من القول أخرى، وله مع ذلك سمات تيسر تعريفه حسب -أفلاطون- فهو قول إثباتي غير جدلي لا يقوم على المساءلة يعقده صاحبه على

"الظن" ا على العلم، ويقصد به الإقناع، معتمداً في ذلك ما يوافق "اللذة" لذة السماع والقائل، لا "الخير" فالخطابة السفسطائية كما يبدو في محاوره قورجياس هي حجاج استهواء³⁷، ومن هذا الطرح يتبين لنا أن أفلاطون يعتمد معياري "العلم والخير" أساساً لكل حجاج أو بلاغة مجديين ينفعان الفرد والمجتمع، وهما معيار يمكن التعبير عنه بأنه "قيمي"، وقد تعرض أفلاطون أيضاً في نقده للسفسطائيين لحجاجهم المعروف الذي كانوا يعمدون فيه إلى إقناع السامعين "بما يخالف المشهور (Paradox) فرأى أنهم يؤسسون حجاجهم ذلك على الظن لا على الحقيقة، انطلاقاً من تصورهم للخطابة التي رأوها فيه "الصانعة للإقناع"³⁸.

لقد شبه أفلاطون الإنسان في حقيقته (بالقول) من حيث قدسيته ومناسبته وترايط أجزائه، وجعل الفضيلة قوامه، وبنى على هذه الفرضية شرطين أساسيين، استبعد بموجبهما الحجاج السفسطائي من دائرة الأهمية، هذان الشرطان هما أساس صناعة القول الحقيقية، "... الأول منهما معرفة منتج القول للحقيقة؛ لأن جهلها هنا مثير للسخرية، أما الثاني فه قدر منتج القول على جعل قوله نظاماً مكتملاً³⁹.

وبهذا كله يتضح لنا أن أفلاطون اهتم فقط بالحجاج الأخلاقي، وهو حجاج يمكننا نعته بأنه مثالي: وقد تم نقده وتجاوزه قديماً من قبل تلميذه أرسطو، وحديثاً من قبل معظم رواد البلاغة المعاصرة، وخاصة (بيرلمان) و(أوليفرون)، وأبسط نقد وجه إلى الطرح الأفلاطوني أنه لا يخدم التطورات الإنسانية المتلاحقة.

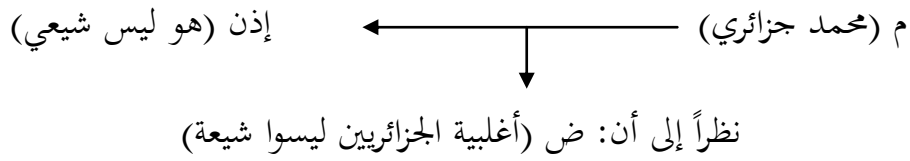
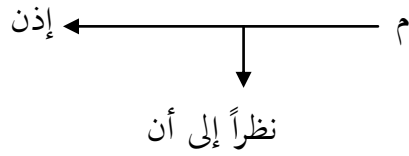
أ-2- حديثاً: نالت دراسة الحجاج عند الغرب نصيباً لا بأس به من قبل العديد من الباحثين الذين كانت لهم مساهمات كبيرة في إعطاء وجه جديد للدرس الحجاجي، وذلك اعتماداً على ما ورثوه من الحجاج الأرسطي الذي يعتبر المنطلق الأساسي للحجاج، وسنحاول التعرض لأهم الباحثين الغرب الذين كان لهم باع علمي في هذا المجال، ومن هؤلاء نذكر:

- الحجاج عند ولان بارث (R. Barthes): لم يتبلور الحجاج عند بارث في كتابه (قراءة جديدة للبلاغة القديمة) كموضوع قائم بذاته، وإنما كآلية بلاغية رئيسية تتبعها تاريخياً، وركز على أصولها الأرسطية وما تلا ذلك من دراسات ونظريات (شيشرون) و(كنتليان)، ويشير إلى تراجع البلاغة واختزالها في (نظرية الصياغة)، التي حصرتها في: البحث في الصور، والوجود والزخارف، أو الأسلوب عموماً، وهذا الاختزال جنى على البلاغة أو على جانبها التداولي المرتبط بنظرية الإقناع المعبر عنها بـ: (المحاجة) و(المجادلة) و(المنازعة) و(المناقشة) و(المحاور)، و(المنظرة)، وغيرها⁴⁰، والوظيفة الإقناعية للبلاغة تجعل من التواصل، تستوجب لكسبها حيازة الإمكانيات الفردية للمتكلم: (الدليل، الحجة، الانفعال، الأمانة، القياس، المحتمل، الاستدلال، [...]) والعاطفية: (التحريك، التهييج، الانفعال، الأحاسيس، العواطف، الطبائع، [...]) واللغوية: الوضوح، الدقة، السلامة، الصور، الأساليب، الوجود، الزخارف، [...])، وبالتالي فالبلاغة ليست جمالية للغة بقدر كونها فلسفة للتفكير وثقافة المجتمع، [...]) أسلوبية الحوار، ومثال العقل البشري عموماً، لفظ البلاغة بهذا يمتلك دلالة مزدوجة: فهي أداة محاجة، وسيلة تفكير، تقنية للإقناع، إضافة إلى كونها فن للقول⁴¹. والحجاج أو المحاجة في مصنف (بارث) المذكور ينطلق من التقسيمات القديمة البلاغية، ليصفها بعد ذلك بمصطلحات حديثة توافق النظريات اللغوية الحديثة كذلك⁴².

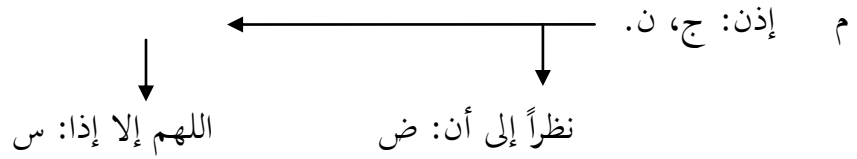
ويطلق (بارث) مصطلح (الابتكار) على المحاجة أو ما يسميه (ابتكار الحجج) أو (طريق المحاجة)، أي العثور على الشيء الموجود مسبقاً، فهو مفهوم (استخلاصي) أكثر مما هو إبداعي [...]) ومن الابتكار ينتقل إلى (الترتيب، أي الخطاب ذاته أو نظام أجزاء الخطاب، ثم علاقته بالابتكار (المحاجة) ويجد أن مواد الابتكار مسبقاً (قطع لغوية) موضوعة في حالة معكوسة، ويجب إدماجها في نظام غير معكوس، الذي هو اتجاه الخطاب [...]) ثم تأتي الحجج لاحقاً⁴³.

- الحجاج عند تولين (Toulmne): لقد قدم تولين رسومات متعددة جاء بها في كتابه (The uses argument) والذي يمكننا أن نستخلص من خلاله مفهوم الحجاج عنده، وهذه الرسومات هي رسومات بيانية على ثلاث مراحل ترجمها (عبد الله صولة) - مع بعض التصرف - على هذا النحو⁴⁴:

الرسم الأول: يمثل حججاً ذا ثلاثة أركان أساسية هي: المعطى أو المصرح به، (م)، والنتيجة (ن) والضمآن - يكون ضمناً - (ض)، ويصاغ على النحو:



الرسم الثاني: وهو حجاج أدق من السابق، بإضافة الموجه (ج)، والاستثناء (س) الذي يحمل عناصر رفض القضية:



مثال:

م (محمد جزائري) ← إذن: ج (من شبه المؤكد) ن (أنه ليس شيعياً) ↓

نظراً إلى أن: ض (أغلبية الجزائريين ليسوا شيعة) اللهم إلا إذا: س (تشيع أثناء دراسته في إيران)

المثال الثالث: يمثل حجاً أكثر دقة بإضافة عنصر الأساس (أ) الذي يبنى عليه الضمان (ض) فيكون على النحو:

ومثاله: م ← إذن: ج، ن. ↓
نظراً إلى أن: ض ↓
بحكم أن: أ ↓

ومثاله: م (محمد جزائري) ← إذن: ج (من شبه المؤكد) ن (أنه ليس شيعياً) ↓
نظراً إلى أن: ض (أغلبية الجزائريين ليسوا شيعة) اللهم إلا إذا: س (تشيع أثناء دراسته في إيران)

بحكم أن: أ (نسبة الشيعة لا تكاد تذكر في الجزائر).

ب- الحجاج عند العرب:

ب-1- قديماً: يضرب الحجاج بجذور قوية في الخطاب العربي، فضلاً عن الدور المهم الذي لعبه الحجاج في الحياة العقديّة والسياسية في البيئة العربية الإسلامية، فضلاً عن اعتماد البيئة الحجاجية في الخطاب العلمي البلاغي⁴⁵، ولعل من أبرز من تناول الحجاج عند العرب قديماً نجد:

- الحجاج عند أبي الحسن إسحاق بن وهب (ت 337): ويجعل (ابن وهب) الاحتجاج نوعاً من أنواع النثر على سبيل التصنيف: (فأما المنشور فليس يخلو أن يكون خطابة أو ترسلاً أو احتجاجاً أو حديثاً، ولكل واحدٍ من هذه الوجوه موضع يستعمل فيه)⁴⁶، وموضع الاحتجاج عنده في: الاحتجاج على من زاع من أهل الأطراف⁴⁷، ويوظفه ضمن تعريفه إياه: وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه من اعتقاد للمجادلين، ويستعمل في المذاهب والديانات وفي الحقوق والخصومات، والتسول في الاعتذارات، ويدخل في الشعر وفي النثر⁴⁸.

ويمكن تصنيف خلاصة فكر ابن وهب في الجدل والمجادلة في النقاط الرئيسية التالية:

1- قدم ابن وهب تعريفاً دقيقاً للجدال والمجادلة وضع فيه يده على مقصد الجدل وموضوعه في مسائل خلافية، وهذا ظاهر في قوله السابق في هذا الشأن.

2- الجدل فيما يفهم من كلام ابن وهب خطاب تعليمي إقناعي: فالجدل إنما يقع في العلة من بين سائر الأشياء المسؤول عنها، وينبغي للمجيب أن يسأل وأن يقنع وأن يكون إقناعه الإقناع الذي يوجب على السائل القبول، وإذا كان الفلج في الجدل إظهار الحجة التي تقنع فالغالب هو الذي يظهر ذلك.

3- إذا كانت مقامات الجدل مقامات اختلافات وخصومات وغيرها فإن الاعتبار الأخلاقي من أوجب ما توجهه تلك المقامات، بل هو أوجبها وليس التمييز بين جدل مقصود، وجدل المقصود ما قصد به الحق واستعمل فيه الصدق، والجدل المذموم ما أريد بها المماراة والغلبة وطلب به الرياء والسمعة⁴⁹.

والحق أن كثيراً مما اشترطه ابن وهب في (أدب الجدل) ينبغي له أن يعزى إلى ذلك

الاعتبار الأخلاقي، ومن أهم ما اشترطه:

- أن يجلم الجادل عما يسمع من الأذى والنبز.
- ألا يعجب برأيه وما تسوله له نفسه حتى يفضى بذلك إلى نصائحه.
- أن يكون منصفاً غير مكابر؛ لأنه إنما يطلب الإنصاف من خصمه ويقصد بقوله وحجته في تميزه بين جهتين للكلام.
- ألا يستصغر خصمه ولا يتهاون به، إذا كان الخصم صغير المحل في الجدل.
- 4- ما ذكره ابن وهب في معنى الجدل والمجادلة وأدب الجدل ما يمكن أن ينظر إليه الآن من منظور (الاستراتيجيات الاتصالية الحجاجية)، ومن أهم ذلك:
 - أن يبني الجادل مقدماته مما يوافق الخصم عليه.
 - أن يصرف همته في حفظ النكت التي تمر في كلام خصمه، مما يبني منها مقدماته، وينتج منها نتائجه فإنه متى اشتغل بذلك أضاع ما هو أحوج إليه منه.
 - ألا يقبل قولاً إلا بحجته، ولا يردده إلا لعلته.
 - ألا يجيب فراغ السائل من سؤاله، لا يبادر بالجواب قبل تدبره واستعمال الروية فيه.
 - ألا يشغب إذا شاغبه خصمه، ولا يرد عليه إذا أربى في كلامه، بل يستعمل الهدوء والوقار.
 - أن تخاطب الناس بما يعهدون ويفهمون، فلا يخرج في خطابهم عما توجبه أوضاع الكلام.
- 5- قول ابن وهب "إن الجدل إنما يقع في العلة" بما تقول به النظرية الحجاجية المعاصرة في هذه النظرية الكائنات البشرية صانعة علة (REASON-MAFERS)، ومستخدمة علة (REASON-USER)⁵⁰.

- الحجاج عند ابن خلدون: لا يختلف الأمر كثيراً عند (ابن خلدون)، والذي كان دقيقاً في تعريفه للجدل، بل لقد عرفه وظيفياً وجعل الاحتجاج وجهاً من وجوهه في قوله: "وأما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعاً، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الاحتجاج، ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ، فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آداباً وأحكاماً يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول، وكيف يكون حال المستدل والمجيب⁵¹، فعنده القاعدة التي تتضمن أصول المناظرة وآدابها وأحوال المتناظرين والأحكام التي يجب أن يراعوها في احتجاجاتهم وأخذهم وردهم، وصاغ له تعريفاً دقيقاً أخيراً: "وكذلك قيل أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الاستدلال، التي يتوصل بها إلى حفظ رأي وهدمه، كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره، فنجد أن كلا من (ابن وهب) و(ابن خلدون) يجعلان الحجاج آلة من آلات الجدل وجزءاً منه، لكن آراءهم ليست بعيدة في دالاتها عنم أوردوا الحجاج كوجه من أوجه الكلام وأجناسه⁵².

ب-2- حديثاً: من خلال ما جاء من دراسات وأبحاث عربية حديثة حول الحجاج للعديد من الباحثين لم يمكننا معظمهم على وجهات نظر وآراء مخالفة لما قدمه نظرائهم الغربيين باستثناء بعض التطبيقات التي اختلفت باختلاف نصوصها، ولعل من أبرز الباحثين العرب في تناول الحجاج وقضاياها نجد:

- الحجاج عند طه عبد الرحمن: ما ميز نظرتة للحجاج هو طابعه الفلسفي، وذلك لأن طه عبد الرحمن أستاذاً للمنطق وفلسفة اللغة، وهو يستند إلى المنطق، ونجده قد ربط بين الحديث الغربي وبين القديم العربي وزاوج بينهما.

في كتابه (اللسان والميزان أو التكوثر العقلي) يضع طه عبد الرحمن نظرية للحجاج انطلاقاً من كونه صفة للخطابة: "إن الأصل في تكوثر الخطاب هو صفته الحجاجية، بناء

على أنه لا خطاب بغير حجج" ⁵³، ومن هنا ينطلق في تعريف الخطاب تعريفاً خاصاً ينبني على قصدين معرفيين هما: (قصد الإغراء) و(قصد الاعتراض) [...] وعرف الحجج في قوله: "إذ حد الحجج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير إلهامه دعوى مخصوصة يحق له الاعتراض عليها" ⁵⁴.

ثم يصنف الحجج إلى:

- الحجج التجريدي: الذي ينبني على اعتبار الصورة وإلغاء المضمون والمقام، وهو من المراتب الدنيا للحجج.

- الحجج التوجيهي: وهو إقامة الدليل على الدعوى بالبناء على فعل التوجيه التي يختص به المستدل.

- الحجج التقويمي: هو إثبات الدعوى بالاستناد إلى قدرة المستدل على أن يجرد من نفسه ذاتاً ثانيةً ينزلها منزلة المعترض على دعواه أو ما يسمى بالتشخيص (في النظرية اللسانية) ⁵⁵.

ويفرق (طه عبد الرحمن) بين الحجج والبرهان، بقوله أن البرهان ينبني على مبدأ الاستدلال على حقائق الأشياء مجتمعة إلى مقاصدها للعلم بالحقائق والعمل بالمقاصد، أب أن الحجج يقوم على اعتبارين: (اعتبار الواقع) أو طلب معرفة الواقع، و(اعتبار القيمة) أو معرفة الواقع وطلب الاشتغال بقيمته ⁵⁶.

وكما استعرض أنواع الحجج وأصناف الحجج نجد أنه قد ركز على السلم الحججي بوصفه عمدة في الحجج، ولقد أورد في كتابه (في أصول الحوار وتحديد الكلام) خاصية أخرى للحجج، وهي الحوارية، وقد جعلها في مراتب ثلاث (الحوار، المحاور، التحوار) ⁵⁷.

- الحجج عند محمد العمري: يسميه (الخطاب الإقناعي) في كتابه: (في بلاغة الخطاب الإقناعي، مدخل نظري وتطبيقي لدراسة الخطابة العربية) في هذه الدراسة محاولة لتتبع

الخطاب الإقناعي (الحجاج) في المتن الخطابي العربي في القرن الأول الهجري، ويعتمد كل الاعتماد على الأسس الأرسطية لبلاغة الخطاب أو الخطاب عموماً، ولا سيما الحجج والبراهين الخطابية، إلا أنه يركز على عنصرين اثنين من عناصر الإقناع في البلاغة العربية القديمة، وهما: المقام وصور الحجاج: (القياس، المثل، الشاهد) إضافة إلى عنصر الأسلوب⁵⁸، وقد صنف المقامات إلى أنواع: (مقامات الخطابة السياسية، مقامات الخطابة الاجتماعية، القياس أو القياس الخطابي)، إذا كانت نظرتة للحجاج أو الخطاب الإقناعي في هذا الكتاب من منظور أرسطي فإنه في كتابه: (البلاغة العربية أصولها وامتداداتها) يعتمد إلى تسمية المصطلحات الحجاجية - إن صح القول - نسبة إلى أصولها البلاغية العربية، ولا سيما في قراءته لمفهوم البيان عند الجاحظ وللفهم والإفهام ببعديهما المعرفي والإقناعي⁵⁹.

¹ حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي (عناصر استقصاء نظري)، عالم الفكر، مجلة دورية محكمة، الكويت، ع1، سبتمبر 2001، ص97، 98.

² المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيد، ج1، تح: عبد الحميد عنداوي، دار الكتب العلمية، لبنان، دط، ص276.
³ الشريف بن علي الجرجاني، التعريفات، تح: إبراهيم الأبتاري، دار الريان للتراث، دط، ص442.
⁴ ابن منظور، لسان العرب، مادة (حجج)، دار صادر للنشر، بيروت، لبنان، مج2، ط1، 1997، ص442.
⁵ شوقي ضيف، المعجم الوسيط، باب الحاء، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، مصر، ط4، 2004، ص157.
⁶ طه عبد الرحمن، في أصول الجوار وتحديد علم الكلام، المركز العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط2، 2000، ص65.
⁷ ينظر: إبراهيم عبد المومن، بلاغة الحجاج في الشعر العربي، ابن الرومي أنموذجاً، مكتبة الآداب، مصر، ط: 1، 2007، ص(5-6).

⁸ سورة البقرة، الآية، 258.

⁹ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الدار التونسية، دار الجماهيرية للنشر، تونس ج3، ص157.

¹⁰ ابن منظور، مرجع سابق، ص28.

¹¹ سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2007، 2008، ص22.

¹² Le grand roert, dictionnaire de la longue crancais, 1^{er} Rediction, paris.1989.P535

¹³ Cambridgeadvancedlearners, dictionary, cambege university press, 2nd pup, 2004, p56.

- ¹⁵ خليفة بوحادي، في اللسانيات التداولية في محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط:2، 2012، ص86..
- ¹⁶ عبد الله صولة، الحجاج في القرآن الكريم من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفراي للنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2009، ص37.
- ¹⁷ محمد العيد، النص والخطاب والاتصال، الأكاديمية الحديثة للكتاب، القاهرة، ط1، 2005، ص187.
- ¹⁸ سامية الدريدي، دراسات في الحجاج، قراءة لنصوص مختارة من الأدب العربي القديم، دار عالم الكتب الحديث، عمان، الأردن، ط1، 2009، ص117.
- ¹⁹ محمد العيد، النص والخطاب والاتصال، المرجع السابق، ص(87-89).
- ²⁰ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²¹ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²² المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²³
- ²⁴ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، الحجاج في البلاغة المعاصرة، بحث في بلاغة النقد المعاصر، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ص36، 37.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص40.
- ²⁶ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ²⁷ ينظر: محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، دار الثقافة، المغرب، ط1، 2005، ص15.
- ²⁸ هاجر مدقن، الخطاب الحجاجي أنواعه وخصائصه، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1434هـ، 2013م، ص39.
- ²⁹ المرجع نفسه، ص40.
- ³⁰ محمد طروس، مرجع سابق، ص18.
- ³¹ أرسطو طاليس، الخطابة، تر: عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات ودار القلم، بيروت، لبنان، 1979، ص08.
- ³² المرجع نفسه، ص19.
- ³³ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص41، 42.
- ³⁴ المرجع نفسه، ص42.
- ³⁵ هاجر مدقن، مرجع سابق، ص41.
- ³⁶ محمد سالم محمد الأمين الطلبة، مرجع سابق، ص26.
- ³⁷ المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- ³⁸ المرجع نفسه، ص28.
- ³⁹ المرجع نفسه، ص29.
- ⁴⁰ هاجر مدقن، مرجع سابق، ص52.

-
- 41 هاجر مدقن، المرجع السابق، ص52.
- 42 المرجع نفسه، ص53.
- 43 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 44 خليفة بوحادي، مرجع سابق، ص87.
- 45 محمد العيد، النص والخطاب والاتصال، مرجع سابق، ص192.
- 46 أبو الحسن إسحاق بن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: جفني محمد شرف، مطبعة الرسالة، عابدين، مصر، دط، دت، ص150.
- 47 المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 48 المرجع نفسه، ص176.
- 49 أبو الحسن إسحاق بن وهب، المرجع السابق، ص242، 243.
- 50 محمد العيد، النص والخطاب والاتصال، مرجع سابق، ص196.
- 51 أبو الحسن إسحاق بن وهب، مرجع سابق، ص150.
- 52 حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دار الكتب الشرقية، تونس، دط، 1966م، ص62.
- 53 طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط 1، 1998م، ص213.
- 54 المرجع نفسه، ص226.
- 55 المرجع نفسه، ص227، 228.
- 56 هاجر مدقن، مرجع سابق، ص61.
- 57 ينظر، طه عبد الرحمن، في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، ط2، 2000، ص31، 32.
- 58 هاجر مدقن، مرجع سابق، ص62.
- 59 المرجع نفسه، ص62.